الدرس الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، وأشـهد أن محمـداً عبـده ورسـوله ، اللهـم صـلِ وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين ،

أمَّا بعد:

يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي – رحمه الله تعـالىٰ – في كتابـه **القواعـد الحسـان المتعلقـة بتفسـير القرآن:**

القاعدة التاسعة عشر[ة]:

خَتْمُ الآيات بأسماء الله الحسنىٰ يدل علىٰ أن الحكم المذكور

له تعلق بذلك الاسم الكريم.

وهذه قاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها تجدها في غاية المناسبة، وتدلك علىٰ أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته، ومرتبط بها.

وهذا باب عظيم من معرفة الله، ومعرفة أحكامه، من أَجَلّ المعارف

وأشرف العلوم، تجد آية الرحمة مختومة بأسماء الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسـماء العـزة، والقـدرة، والحكمة، والعلم، والقهر. ولا بأس هنا أن نتتبع الآيات الكريمة في هذا، ونشير إلىٰ مناسبتها بحسـب مـا وصـل إليـه علمنا القاصر، وعبارتنا الضعيفة، ولو طالت الأمثلة هنا؛ لأنها من أهم المهمات، ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيراً منها، فقوله تعالىٰ في قوله:

{{فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ}} [البقرة: ٢٩] **ذِكْرُ إحاطة علمه بعد ذِكْر خلقه للأرض والسـموات يدل علىٰ إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صـنعها في أحسـن خلـق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه،**

كما قال في الآية الأخرىٰ: {{أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ *}} [الملك: ١٤] فخلقه للمخلوقات من أكبر الأدلة العقلية علىٰ علمه، فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟

هذه **القاعدة التاسعة عشرة** من القواعد الحسان للإمام بن ناصر السعدي – رحمه الله تعالىٰ – ،وهذه القاعدة تتعلق بالآيات الكريمة المختومة بأسماء الله – تبارك وتعالىٰ – الحسنىٰ إما باسم واحد أو اسمين وأن الآيات المختومة بأسماء الله الحسنىٰ لما ختمت به من أسماء الله تعلق بالمعنىٰ أو الحكم والأمر الذي ذكر في الآية وهذه قاعدة مضطردة في جميع آي القرآن الكريم آيات الرحمة والنعمة والفضل والإنعام والإكرام تختم من أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – بما يناسب ذلك وآيات العقوبة والعذاب والتهديد والوعيد أيضًا تختم من أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – بما يناسب ذلك ولا ترىٰ آية الرحمة مختومة بالعذاب ولا أيضاً ترىٰ آيات الوعيد والتهديد مختومة بأسماء الرحمة ولو كان شيءٌ من ذلك لحدث في الكلام تنافر وعدم تناسب ولهذا فإن الأسماء الحسنىٰ التي تختم بها آيات القرآن الكريم لها تعلق بالمعنىٰ أو الحكم أو الأمر الذي ذكر في الآية ، وهذه القاعدة تتعلق بفقه أسماء الله تعالىٰ وفهمها وعقل معانيها ومعرفة دلالاتها ، ومن كان لا يفقه أسماء الله – عز وجل – ولا يفهم معانيها فهماً صحيحاً لا يستفيد من هذه القاعدة ولا ينتفع بها ، وإنما ينتفع بهذه القاعدة من كان يفقه أسماء الله ﷻ فقهاً صحيحاً مستمداً من معاني كتاب الله – عز وجل – وفقه السلف – رحمهم الله تعالىٰ – .

أما من يسلكون في أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – مسالك باطلة من تأويل أو تحريف أو غير ذلك فهؤلاء من أبعد ما يكون أن يحصلوا فائدةً من هذه القاعدة أو من دلالات الأسماء المختوم بها آيات القرآن الكريم .

فهذه قاعدة عظيمة في فقه أسماء الله الحسنىٰ من جهة ، وفي فقه كلام الله تعالىٰ التي ختمت به شيء من أسماء الله تعالىٰ من جهة أخرىٰ .

وكما قدمت هي قاعدة مضطردة في جميع آي القرآن الكريم .

لا تجد آيةً ختمت باسم من أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – أو أكثر إلا وله تعلق بالمعنىٰ الذي ذكر في الآية ،

ولكي تنتفع بهذه القاعدة تحتاج إلىٰ نوعين من الفهم :

الأول : فهم معنىٰ الآية .

فتتدبر الآية وتعرف معناها وما دلت عليه .

الثاني : فهم أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – فهمًا صحيحًا .

ثم بعد ذلك تنظر في الرابطة بين معنىٰ الاسم والمعنىٰ الذي قرر في الآية .

وفي كل آي القرآن الكريم تجد هذا الارتباط بينما ختمت به الآيات من أسماء الله والمعاني التي قررت وبينت في آيات الله – عز وجل – .

- من لطائف ما ذُكِر ومما يبين مكانة هذه القاعدة وقيمتها ما شار إليه وذكره ابن القيم – رحمه الله تعالىٰ – في كتابه "**جلاء الأفهام**" وغيره من جلاء العلم ، أن إعرابيًا سمع قارئ يقرأ كتاب الله ﷻ وكان حافظًا فقرأ قول الله – سبحانه وتعالىٰ – :(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللهِ ۗ (٣٨-المائدة ((والله غفور رحيم)) هكذا قرأها ، والإعرابي يسمع القراءة ، قال : "ليس هذا كلام الله"، فغضب القارئ فقال : تنكر كلام الله ! قال : لا ، لا أنكر كلام الله لكن هذا ليس كلام الله لأن الآية ماذا فيها ؟

قطع ونكال وعقاب وعذاب والخاتمة والله غفور رحيم وجد أنه غير متناسب .

لأنها آية عقاب ونكال وتهديد ووعيد ثم خاتمتها : "والله غفور رحيم" وجد أن الأمر غير متناسب ،

فرجع القارئ إلىٰ حفظه وقرأ الآية علىٰ الصواب : (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللهِ ۗ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨))) المائدة .

قال الإعرابي : نعم ! (عز فحكم فقطع) ،

الكلام مستقيم إذن .

أي أن هذا الختم بهذين الاسمين "العزيز الحكيم "متناسب مع الحكم الذي ذكر في الآية ولهذا إذا ختم الإنسان خطابه بأسماء أو أيضًا ختم دعاءه بأسماء من أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – لا تناسب المطلوب يحدث تنافر في الكلام مثل لو قال قائل: "اللهم اغفر إنك شديد العقاب"، تجد في الكلام تنافر مع أن شديد العقاب وصف لله – تبارك وتعالىٰ – لكن وضعها في هذا الموضع وختم هذا الدعاء بها يكون في الكلام تنافر وعدم تواؤم وتناسب ولهذا

وهو من فروع هذه القاعدة الأدعية التي تأتي في القرآن مختومة بأسماء الله وكذلك الأدعية الثابتة في السنة تجد أن كل دعاء مختوماً بما يناسب من أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٩] ﴿افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤] وهكذا تجد الدعاء مختوماً من أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – بما يناسب المطلوب ولو ختم الدعاء باسم لا صلة له بالمطلوب يكون في الكلام شيء من التنافر.

فالشاهد أن هذه قاعدة عظيمة النفع جليلة القدر كبيرة الفائدة في:

- فقه أسماء الله الحسنىٰ من جهة
- وفي فقه معاني كلام الله – تبارك وتعالىٰ – من جهة أخرىٰ،

وسيأتي معنا فيما ذكره الشيخ – رحمه الله تعالىٰ – من أمثلة أن فقه هذه القاعدة تستطيع من خلاله أن تستنبط أحكاماً شرعية تستفاد من الآيات وتكون استفادتك لهذه الأحكام واستنباطك لها من خلال فقهك لما ختمت به تلك الآيات من أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – الحسنىٰ.

قال – رحمه الله تعالىٰ – : **ختم الآيات بأسماء الله الحسنىٰ يدل علىٰ أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم:**

يدل علىٰ أن ذلك الحكم: أي الذي قرر وذكر في الآية له تعلق بذلك الاسم الكريم، يعني لا يمكن تختم الآية باسم من أسماء الله ليس له تعلق ولا ارتباط بالمعنىٰ أو الحكم الذي قرر في الآية.

قال: **وهذه قاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها تجدها في غاية المناسبة وتدلك علىٰ أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته ومرتبط بها،**

هنا أيضاً تستفيد من هذا الكلام الذي قرره الشيخ – رحمه الله تعالىٰ – فائدة عظيمة تتعلق بأسماء الله – جل وعلا – ألا وهي :

أن أسماء الله أصل للعلم بكل معلوم والمعلومات من حيث الجملة لا تخرج عن أمرين **إما أمر أو خلق** لا تخرج عن هذين الأمرين وكل منهما راجع إلىٰ أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – وصادر عنها، يقول الله – سبحانه وتعالىٰ – :

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فالخلق لله والأمر لله – تبارك وتعالىٰ – ، فإذن المعلومات كلها سواء كانت في جانب الخلق أو متعلقة بالخلق، أو كانت في جانب الأمر ومتعلقة به، فهي راجعة إلىٰ أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – ؛ لأن الخلق والأمر كله لله – سبحانه وتعالىٰ – .

ولهذا قال الشيخ هنا:

(**وتدلك علىٰ أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسماءه وصفاته**).

الشرع: أي ما يأمر به – سبحانه وتعالىٰ – عباده من أوامر ونواهي.

والأمر: أي أمره – تبارك وتعالىٰ – وأقضيته الكونية القدرية.

والخلق: مخلوقات الله – سبحانه وتعالىٰ – ، وهي دالة عليه – جل وعلا – ، كما قال القائل:

وفي كل شيء له آية تدل علىٰ أنه الواحد

فهذه المخلوقات دالة علىٰ كمال خالقها، وعظمة مبدعها، وكمال قدرته، وسعة علمه، وتمام حكمته.

فهذه كلها مستفادة من هذا الأصل، ألا وهو: أن المعلومات كلها راجعة إلىٰ **هذين الأمرين**: – إما خلق، – أو أمر،

وذلك كله راجع إلىٰ أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – ، فتبين بهذا أن العلم بأسماء الله – تبارك وتعالىٰ – وصفاته أصل للعلم بكل معلوم.

قال: (**وهذا باب عظيم من معرفة الله ومعرفة أحكامه**).

جانبان أشرت إليهما مستفادان من القاعدة:

الجانب الأول: يتعلق بفقه الأسماء –أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – –.

والجانب الآخر: يتعلق بفقه الأحكام المبينة في كتاب الله – سبحانه وتعالىٰ – .

ففهمك لهذه القاعدة يفيدك في هذه الجانبين: **جانب فقه الأسماء، وجانب فقه الأحكام**.

قال: (من أجل المعارف وأشرف العلوم).

هذا من أجل المعارف وأشرف العلوم؛ لأنه كما يقال: شرف العلم من شرف معلومه، ولا أشرف من العلم بالله – سبحانه وتعالىٰ – وأسماء الحسنىٰ وصفاته العليا، فإن هذا أشرف العلوم وأجلها علىٰ الإطلاق.

قال: (تجد آية الرحمة أسماء مختومة بأسماء الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر).

وهذا مطرد، وليس هذا فحسب، بل كل آية من القرآن ختمت باسم من أسماء الله أو صفة من صفاته فللاسم الذي ختمت به والصفة التي ختمت بها تعلق بالحكم أو المعنىٰ الذي قرر في الآية، وهذا سيظهر من خلال أمثلة كثيرة ساقها – رحمه الله تعالىٰ – .

قال: (ولا بأس هنا أن نتتبع الآيات الكريمة في هذا، ونشير إلىٰ مناسبتها بحسب ما وصل إليه علمنا القاصر، وعبارتنا الضعيفة، ولو طالت الأمثلة هنا؛ لأنها من أهم المهمات).

أشار إلىٰ أمثلة كثيرة، واعتذر للإطالة لكون الموضوع عظيم جداً، ومهم للغاية، فكثرة الأمثلة لتوضحيه وتجليته وبيانه، وليصبح أيضاً المسلم وطالب العلم بضبطه لهذه القاعدة وإتقانه لها يحسن الاستفادة من الأحكام المقررة في القرآن الكريم، وأيضًا يحسن الاستفادة من فهم أسماء الله وفقهها فقهًا صحيحاً.

قال: (ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيراً منها).

يعني التنبيه علىٰ هذا الأصل وبسطه وشرحه عند بيان اهل القرآن تجد العناية به في كتب التفسير ليست قوية إلا يسيراً من كتب التفسير اعتنت بهذا الجانب، وإفراده كقاعدة وأصل مع ضرب الأمثلة عليه وتوضيحه بالأمثلة ، هذا مفيد لطالب العلم فائدة كبيرة جدّاً؛ لأنه إذا فهمت القاعدة وتدرّب علىٰ تطبيقها بجملة من الأمثلة أحسن فيما بعد الاستفادة من هذا الأصل العظيم والقاعدة المتينة ، بدأ يضرب الأمثلة : **المثال الأول**: قال :((فقوله ـ تعالىٰ ـ في قوله: ﴿فَسَوّاهُنَّ سَبعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] ختم هذه الآية التي فيها ذكر خلق الأرض وتسخيرها للنّاس وخلقه – تبارك وتعالىٰ – للسّماوات ختم هذه الآية بقوله : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] ختمها بذكر العلم ولها نظائر كثيرة في القرآن)) يذكر ـ جل وعلا – خلقه للسماوات وخلقه للأرض ثمّ يختمها بذكر العلم وأيضًا يضمّ إليه القدرة في بعض الآيات ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَ سَبعَ سَماواتٍ وَمِنَ الأَرضِ مِثلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمرُ بَينَهُنَّ

لِتَعلَموا أَنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ وَأَنَّ اللهَ قَد أَحاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلمًا﴾ [الطلاق: ١٢] فما مناسبة ختم هذه الآية التي ذكر فيها خلق السّموات وخلق الأرض بقوله:

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ﴾ ؟ - لأنّ الخلق لهذه السّماوات والإيجاد لها من العدم دليل علىٰ إحاطة علم من خلقها بها وأنّ علمه - سبحانه وتعالىٰ - بها محيط فكونه تفرّد بخلقها وإيجادها من العدم هذا دليل بيّن أنّه أحاط بها علما ﴿ لِتَعلَموا أَنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ وَأَنَّ اللهَ قَد أَحاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلمًا﴾ [الطلاق: ١٢] ولهذا قال ـ - جل وعلا - ـ في آية أخرىٰ :﴿أَلا يَعلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ﴾ [الملك: ١٤]، فخلق المخلوقات وإيجادها من العدم دليل علىٰ إحاطة علم خالقها بها وأنّ علمه - سبحانه وتعالىٰ - وسع جميع المخلوقات لا يعزب عنه شيء ﴿لا يَعزُبُ عَنهُ مِثقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الأَرضِ﴾[سبأ: ٣]،

قال : ((**ذكر إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض والسماوات يدل علىٰ إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة وأنّه حكيم حيث وضعها لعباده وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام**))

أي: أنّ هذا الخلق للسّماوات والأرض صادر عن علم كامل وحكمة تامّة ، قال :

((**وأنّ خلقه لها من أدلّة علمه** كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿أَلا يَعلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ﴾ [الملك: ١٤] **فخلقه للمخلوقات من أكبر الأدلّة العقليّة علىٰ علمه فكيف يخلقها وهو لا يعلمها ؟**)) وهذا برهان صحيح وقوي يقرّر من خلاله ثبوت العلم الكامل الشامل المحيط لله - سبحانه وتعالىٰ - بكل مخلوقاته ،

ومن بديع الاستفادة من هذا الاستدلال ما ذكره قوام السّنة الحافظ التّيمي ـ رحمه الله ـ في كتابه "**الحجّة في بيان المحجّة** " ذكر أنّ أحد الملاحدة أراد أن يشكّك بعض المسلمين في عقيدتهم في الله - تبارك وتعالىٰ - وتفرّده بالخلق والرزق والإنعام والتّصرف والتّدبير أراد أن يشكّكهم في هذه العقيدة فقال لهم : (أنتم تزعمون أنّه لا خالق إلّا الله ـ قال لهم :أنا أخلق أنا أستطيع أن أخلق وسأريكم شيئًا من مخلوقاتي ثمّ أحضر زجاجة ووضع فيها أشياء من الطّعام بقايا لحم وبقايا طعام وضعها في تلك الزّجاجة وأغلق الزّجاجة وأحكم إغلاقها وتركها في مكان دافئ لمدّة أيّام ، ثمّ أخرجها بعد هذه المدّة وإذا بها ممتلئة بالدّود مليئة بالدّود وفتح الزجاج الغطاء الذي عليه فبدأ الدود يخرج منها قال: هذه مخلوقات لي تزعمون لا خالق إلا الله هذه مخلوقات لي فكان في المجلس شاب صغير وكان أصغر من في المجلس وألقىٰ الله - سبحانه وتعالىٰ - الحجة علىٰ لسانه أجرىٰ الحجة علىٰ لسانه قال: وقوله مستفاد من

هذا الأصل الذي مر معنا قال: لم يكن أحد ليخلق إلا ويعلم عدد ما خلق ويعلم ذكورهم من إناثهم ويعلم أرزاقهم ويعلم آجالهم فأبن لنا ذلك كله .أنت الآن الخالق لها؟ كم عدد المخلوقات التي خلقتها هل يعرف؟

لا يعرف فهذا دليل عظيم جداً مستفاد من هذه القاعدة " ألا يعلم من خلق" لا يمكن أن يكون خالقًا لها وفي الوقت نفسه لا علم له بها هذا لا يمكن أن يكون تفرد بخلقها وإيجادها من العدم ثم في الوقت نفسه يكون لا علم له بها هذا لا يمكن فقال له كم عدد هذه المخلوقات ؟

السؤال الثاني كم الذكور والإناث ؟

الدود هذا الذي تدعي أنك خلقته كم الذكر فيها وكم الإناث؟

والسؤال الثالث ماهي أرزاقها ماذا ستقتات وماذا ستأكل وماذا ستطعم وماذا ستشرب ؟

والسؤال الرابع :آجالها كل واحدة من هذه الدود التي خلقتها متىٰ ستموت ؟

كل هذه أسئلة ما يجيب ولا علىٰ واحد منها "فبهت الذي كفر "

فالشاهد هذا أصل عظيم جداً ومستفاد من هذا قال: " وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ "

يعني لا يمكن أن يكون خالقًا ولا علم له بما خلق هذا غير ممكن " أَلا يَعلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ" إذن ختم هذه الآية " فَسَوّاهُنَّ سَبعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ" ختمها بذكر العلم دليل علىٰ أن الخالق لهذه السماوات والخالق لهذه العوالم محيط بها علمًا وسعها – تبارك وتعالىٰ – علمًا لا يعزب عنه منها شيء ،

ولما ذكر كلام الملائكة حين أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، ومراجعتهم لربهم في ذلك، فلما خلق آدم، وعلَّمه أسماء كل شيء، وعجزت الملائكة عنها، وأنبأهم آدم بها {قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *} [البقرة: ٣٢] فاعترفوا لله تعالىٰ بسعة العلم، وكمال الحكمة، وأنهم مخطئون في مراجعتهم في استخلافه في الأرض. وفي هذا أن الملائكة علىٰ عظمتهم، وسعة معارفهم بربهم، اعترفوا بأن علومهم تضمحل عند علم ربهم، وأنه لا علم لهم إلا منه، فخَتْم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين ـ الدالين علىٰ علم الله بآدم، وتمام حكمته في خلقه، وما يترتب علىٰ ذلك من المصالح المتنوعة ـ من أحسن المناسبات.

هذا مثال آخر للقاعدة وهو ختم الله – سبحانه وتعالىٰ – بهذا السياق المبارك الذي يتعلق بإخبار الله – سبحانه وتعالىٰ – للملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة ومراجعتهم لله – سبحانه وتعالىٰ – في هذا الخلق وقولهم لله – جل وعلا – : (أَتَجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها وَيَسفِكُ الدِّماءَ وَنَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)

مراجعتهم الله – سبحانه وتعالىٰ – في هذا الأمر الذي أخبرهم – سبحانه وتعالىٰ – أنه فاعله وأنه جاعل في الأرض خليفة فلما خلق الله – سبحانه وتعالىٰ – آدم وأوجده وعلمه أسماء كل شي وعجزت الملائكة عنها وأنبأهم آدم بها قالت الملائكة

﴿قالوا سُبحانَكَ لا عِلمَ لَنا إِلّا ما عَلَّمتَنا إِنَّكَ أَنتَ العَليمُ الحَكيمُ﴾[البقرة: ٣٢]

فختم هذه الآية بهذين الاسمين ﴿العَليمُ الحَكيمُ﴾ مناسب غاية المناسبة ؛ لأن خلق الله – سبحانه وتعالىٰ – لآدم والذي كان الملائكة قد راجعوا الله – سبحانه وتعالىٰ – فيه هو خلق عن علم محيط وعن حكمة تامة عن علم محيط شامل وعن حكمة تامة ، والحكمة هي وضع الأشياء مواضعها فجاء ختم كلام الملائكة وتسبيحهم لله سبحانه وتنزيههم له في هذا المقام بهذين الاسمين ﴿إِنَّكَ أَنتَ العَليمُ الحَكيمُ﴾؛ لأن هذين الاسمين لهما تعلق وارتباط بالمعنىٰ الذي ذكر في الآية الكريمة ، وهنا يمكن أن نقول هذا من دلائل فقه الملائكة لأسماء الله – تبارك وتعالىٰ – ؛ لأنهم ختموا تنزيههم لله – تبارك وتعالىٰ – باسمين عظيمين مناسبين غاية المناسبة للمعنىٰ الذي قرر في الآيات أو السياق الذي قرر في الآيات فختموا كلامهم أو ختموا تسبيحهم لله بهذين الاسمين ﴿ سُبحانَكَ إِنَّكَ أَنتَ العَليمُ الحَكيمُ﴾ فذكروا من أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – ما يناسب المقام تمام المناسبة ،

وأما قوله عن آدم: {{فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ*}}[البقرة:٣٧] وخَتْمُه كثيراً من الآيات بهذين الاسمين بعد ذكر

رحمته، ومغفرته، وتوفيقه، وحلمه، فمناسبته جلية لكل أحد، وأنه لما كان هو التواب الرحيم أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفَّقهم لفعل الأسباب التي يتوب عليهم ويرحمهم بها، ثم غفر لهم ورحمهم فتاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة والأسباب، وتاب عليهم ثانيًا حين قبل مَتَابَهُم، وأجاب سؤالهم؛ ولهذا قال في الآية الأخرىٰ:

{{ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا}} [التوبة: ١١٨] أي: أقبل بقلوبهم؛ فإنه لولا توفيقه وصَرْف قلوبهم إلىٰ ذلك لم يكن لهم سبيل إلىٰ ذلك حين استولت عليهم النفس الأمارة؛ فإنها لا تأمر إلا بالسوء إلا من رحم الله فأعاذه منها ومن نزغات الشيطان.

ثم ذكر هذا المثال وهو قوله عن آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحيمُ﴾... ﴿تَلَقّىٰ آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيه﴾ ذكر الله – عز وجل – في هذا السياق توبته علىٰ آدم – عليه السلام – ثم ختم بهذين الاسمين

﴿التَّوّابُ الرَّحيمُ﴾ وما من ريب أن ختم هذه الآية بهذين الاسمين مناسب غاية المناسبة؛ لأن المقام مقام توبة علىٰ آدم فناسب هذا السياق أن يذكر اسم الله التواب واسم الله التواب....

وأما قوله عن آدم: {{فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ*}}[البقرة:٣٧] وخَتْمُه كثيراً من الآيات بهذين الاسمين بعد ذكر

رحمته، ومغفرته، وتوفيقه، وحلمه، فمناسبته جلية لكل أحد، وأنه لما كان هو التواب الرحيم أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفَّقهم لفعل الأسباب التي يتوب عليهم ويرحمهم بها، ثم غفر لهم ورحمهم فتاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة والأسباب، وتاب عليهم ثانيًا حين قبل مَتَابَهُم، وأجاب سؤالهم؛ ولهذا قال في الآية الأخرىٰ:

{{ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا}} [التوبة: ١١٨] أي: أقبل بقلوبهم؛ فإنه لولا توفيقه وصَرْف قلوبهم إلىٰ ذلك لم يكن لهم سبيل إلىٰ ذلك حين استولت عليهم النفس الأمارة؛ فإنها لا تأمر إلا بالسوء إلا من رحم الله فأعاذه منها ومن نزغات الشيطان.

هذا مثال ذكره الشيخ – رحمه الله تعالىٰ – لختم أسماء الله – تبارك وتعالىٰ – وختم الآيات بأسماء الله – جل وعلا –،

فذكر توبته – جل وعلا – عن أبينا آدم، وذكر – جل وعلا –في آيات أن آدم –عليه السلام–عصىٰ ربه ﴿وَعَصىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ﴾ [طه: ١٢١]

وأن الله – عز وجل –تاب عليه، وذكر – جل وعلا –توبته عليه قال:﴿فَتابَ عَلَيهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]

ومن المعلوم ما ذكره النبي-عليه الصلاة والسلام- أن شأن بني آدم كشأن أبيهم آدم، قال-عليه الصلاة والسلام-:((كل بني آدم خطاء))

- ولهذا من أخطأ ووقع في الذنب وتاب **ففيه شبه من أبيه آدم**، بتوبته إلىٰ الله – سبحانه وتعالىٰ – وإنابته إليه،
- ومن عاند وكابر وأبىٰ أن يتوب **ففيه شبه من إبليس**؛ لأن إبليس عصىٰ الله- – تبارك وتعالىٰ – وكابر وعاند وتكبر،

ولهذا لا يخلو إنسان من خطأ، ولا يخلو من ذنبٍ ،ولا يخلو من تقصير، لكن ينبغي علىٰ كل بني آدم أن يتشبهوا بأبيهم بالتوبة إلىٰ الله – سبحانه وتعالىٰ – و الإنابة إليه – جل وعلا – وهنا ينبغي علىٰ كل مسلم أن يفقه هذا الاسم العظيم الكريم المبارك الذي ختمت به هذه الآية الكريمة قال: ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ ﴾ [البقرة: ٣٧] – جل وعلا – ، والتواب من أسماءه – تبارك وتعالىٰ – له دلالتان ينبغي فهمهما،

الدلالة الأولىٰ: ألا وهي الإقبال بالقلوب؛ لأن هذه توبته من الله – جل وعلا – علىٰ عبده، الإقبال بقلب العبد علىٰ التوبة والإنابة إلىٰ الله – سبحانه وتعالىٰ –؛ لأن توبة العبد لا تكون إلا بمنة التوّاب عليه، توبة العبد وتركه للذنوب وبعده عنها وإقباله علىٰ الله – سبحانه وتعالىٰ – هذا لا يكون إلا بتوبة التواب عليه – سبحانه وتعالىٰ –بأن يقبل بقلبه ليتوب إلىٰ الله – جل وعلا –،

ولهذا كل التائبين المنيبين العائدين إلىٰ صراط الله المستقيم هؤلاء أكرمهم الله – عز وجل – بأن أقبل بقلوبهم علىٰ الصراط المستقيم، وأزال عنهم ما عليهم من غفلة وإعراض وصدود عن دين الله – تبارك وتعالىٰ – ،

فهو الذي – سبحانه وتعالىٰ – يُقبل بقلب من شاء من عباده إليه، "يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك، يا مصرف القلوب صرف قلوبنا علىٰ طاعتك"، فالقلوب بيد الله – سبحانه وتعالىٰ – وكان أكثر دعاء نبينا –عليه الصلاة والسلام- :((يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك، قالت أم سلمة قلت : يا رسول الله أوىٰ إن القلوب لتتقلب، قال: ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه))

((إن شاء أقامه)): أي أقبل به علىٰ التوبة،

فتوبة الله علىٰ عبده هي توبة منه – جل وعلا – علىٰ عبده بتوفيقه لعبده لتوبة،

وإقباله بقلب عبده عليه وهو التواب – جل وعلا –،

وإذا أراد الله – سبحانه وتعالىٰ – بعبده خيراً أقبل بقلبه، وهيأ له أسباب التوبة منًا منه – سبحانه وتعالىٰ – وتفضلاً، وهذا هو معنىٰ الآية التي ذكرها المصنف – رحمه الله تعالىٰ – وهي قوله:﴿ ثُمَّ تابَ عَلَيهِم لِيَتوبوا ﴾ [التوبة: ١١٨]

ما معنىٰ ﴿ تابَ عَلَيهِم ﴾ هنا، ﴿ ثُمَّ تابَ عَلَيهِم لِيَتوبوا ﴾

أي: ليتوبوا هم إليه – سبحانه وتعالىٰ – : ﴿تابَ عَلَيهِم﴾ أي: أقبل بقلوبهم

﴿تابَ عَلَيهِم ﴾ وفقهم، هداهم، شرح صدورهم للتوبة. فهو – جل وعلا – الذي بيده القلوب وهو الذي – سبحانه وتعالىٰ – هو الذي بيده الهداية – جل وعلا – يهدي من يشاء ويوفق من يشاء ويتوب علىٰ من يشاء الأمر بيده – سبحانه وتعالىٰ – هذه توبة من الله علىٰ عبده قبل توبة العبد ثم توبة منه – سبحانه وتعالىٰ – علىٰ عبده بقبول توبته منه ﴿وَهُوَ الَّذي يَقبَلُ التَّوبَةَ عَن عِبادِهِ﴾ [الشورىٰ: ٢٥].

فتوبة الله – سبحانه وتعالىٰ – **لعبده توبتان:**

- توبة قبل توبة العبد؛ لتوفيقه للعبد للتوبة،
- وتوبة بعد توبة العبد بقبول توبة العبد؛

ولهذا كل توبة تكون من العبد محفوفة بتوبتين من الله: توبة العبد بالتوفيق للتوبة، وتوبة العبد بقبول الله – سبحانه وتعالىٰ – لتوبة عبده.

فكان في غاية المناسبة و تمام الموائمة أن تختم هذه الآية الكريمة بقوله:
﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ ﴾ [البقرة: ٣٧]؛ لأنه – سبحانه وتعالىٰ – هو الذي وفق آدم للتوبة، وهو – جل وعلا – الذي قبل توبة آدم منه وتلقىٰ توبته بالقبول – سبحانه وتعالىٰ – .

وأيضًا ناسب أن تُختم الآية بذكر رحمة الله – سبحانه وتعالىٰ – ؛ لأن هذه من رحمة الله بعباده المؤمنين وأهل الفضل والرحمة و الاختصاص بها أن يكرمهم الله – سبحانه وتعالىٰ – بهذه الرحمة وهذا الاصطفاء، يكتب الله سبحانه تعالىٰ لهم رحمته الخاصة – جل وعلا – فكان في غاية المناسبة أن تختم هذه الآية بهذين الاسمين : ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]

قال الشيخ رحمه الله:

وهذا له نظائر كثيرة يقول : وختمه كثيرًا من الآيات بهذين الاسمين فهذا مناسب غاية المناسبة.

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كمال قدرته وتفرده بالملك فقال: {{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}} [البقرة: ١٠٦، ١٠٧] وفي هذا رد علىٰ من أنكر النسخ كاليهود، وأن نسخه لما ينسخه من آثار قدرته وتمام ملكه؛ فإنه تعالىٰ يتصرَّف في عباده، ويحكم بينهم في أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، فلا حَجْر عليه في شيء من ذلك.

ثم ذكره رحمة الله تعالىٰ هذا المثال وهو ختمه - تبارك وتعالىٰ - للآية التي في سورة البقرة ﴿ما نَنسَخ مِن آيَةٍ أَو نُنسِها نَأتِ بِخَيرٍ مِنها أَو مِثلِها أَلَم تَعلَم أَنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] ﴿أَلَم تَعلَم أَنَّ اللهَ لَهُ مُلكُ السَّماواتِ وَالأَرضِ﴾

فختم هذه الآية المتعلقة بالنسخ بذكر قدرته - جل وعلا - علىٰ كل شيء وذكر ملكه تبارك وتعالىٰ للسماوات والأرض قال الشيخ: وفي هذا رد علىٰ من أنكر النسخ كاليهود وأن نسخه لما ينسخه من آثار قدرته وتمام ملكه

نسخه - جل وعلا - لما ينسخه من الأحكام هذا دليل علىٰ كماله لا كما يزعم اليهود أنه دليل النقص بل هذا دليل علىٰ كماله **كمال القدرة** من جهة كما قال :

﴿ أَلَم تَعلَم أَنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] **وكمال الملك والتصرف** في هذا الكون كما يشاء وكما يريد - جل وعلا - وهذا واضح في قوله: ﴿أَلَم تَعلَم أَنَّ اللهَ لَهُ مُلكُ السَّماواتِ وَالأَرضِ﴾ [المائدة: ٤٠]

فهذا النسخ الذي يكون في الأحكام والأوامر والنواهي هو دليل علىٰ كمال قدرة الله - سبحانه وتعالىٰ - وتمام ملكه وأنه يتصرف في هذا الملك.

ويقضي فيه بما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه - جل وعلا - .

ولما قال: {{وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *}} [البقرة: ١١٥] أي: واسع الفضل، واسع الملك، جميع العالم العلوي والسفلي داخل في ملكه، ومع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله، ومحيط علمه في الأمور الماضية والمستقبلة، ومحيط علمه بما في التوجه إلىٰ القِبل المتنوعة من الحكمة، ومحيط علمه بنيَّات المستقبلين لجهة من الجهات إذا أخطؤوا القبلة المعنية، فحيث تيمَّم المصلي تيمَّم إلىٰ وجه ربه.

ثم ذكر هذا المثال وهو قوله – جل وعلا – : ﴿وَلِلَّهِ المَشرِقُ وَالمَغرِبُ فَأَينَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجهُ اللهِ إِنَّ اللهَ واسِعٌ عَليمٌ﴾ وهذه الآية جاءت في السياق في سورة البقرة في تحول القبلة. بعد أن كانت إلي بيت المقدس أصبحت إلي الكعبة، وأن هذا التحول والتحويل من القبلة من جهة إلي جهة هو بأمر الله – سبحانه وتعالىٰ – وتدبيره الذي له المشرق والمغرب يولي عباده حيث يشاء ويحكم – جل وعلا – فيهم بما يريد ويوجههم إلي حيث يشاء – سبحانه وتعالىٰ – فالجهات كلها خلقه وملكه – سبحانه وتعالىٰ – وهو – جل وعلا – الخالق المدبر المتصرف في هذه المخلوقات كيف يشاء – جل وعلا – يقضي فيها بما يريد، ولهذا ختم هذا السياق وهو قوله: ﴿وَلِلَّهِ المَشرِقُ وَالمَغرِبُ فَأَينَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجهُ اللهِ إِنَّ اللهَ واسِعٌ عَليمٌ﴾:

أي من تعبدونه وتتجهون إليه وتودون له الصلاة وغيرها من الطاعات واسع عليم فختم هذا السياق بهذين الاسمين مناسب غاية المناسبة؛ لأن اسمه ((الواسع)) يدل علىٰ سعة الفضل سعة الملك؛ أن جميع العالم العلوي والسفلي داخل في ملكه، ثم مع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله : أي أن أيضا علمه – تبارك وتعالىٰ – واسع ﴿رَبَّنا وَسِعتَ كُلَّ شَيءٍ رَحمَةً وَعِلمًا﴾ [غافر: ٧]

((فالواسع))هذا اسم من أسماء الله وله معاني كثيرة يدل علىٰ سعة العلم يدل علىٰ سعة الفضل يدل علىٰ سعة الرحمة يدل علىٰ سعة الملك إلي. غير ذلك من المعاني التي يدل عليها اسمه – تبارك وتعالىٰ – (الواسع)،

قال: ((**ومع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله، ومحيط علمه في الأمور الماضية والمستقبَلَة، ومحيط علمه بما في التوجه إلىٰ القِبَل المتنوعة من الحكمة، ومحيط علمه بنيات المستقبلين لجهة من الجهات إذا أخطئوا القبلة المعينة فحيث تيمم المصلي تيمم إلي وجه ربه**)) وأهل العلم لهم في قوله: ﴿فَأَينَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجهُ اللهِ﴾ قولان معروفان:

– منهم من قال المراد بالوجه الوِجْهة وهذا قال به: الشافعي رحمه الله وتعالىٰ وغيره من أهل العلم ﴿فَأَينَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجهُ اللهِ﴾:أي توجيه الله – سبحانه وتعالىٰ – هو الذي يوجِّهكم إلي حيث يشاء من الجهات سبحانه ،

– والمعني الأخر ﴿فَأَينَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجهُ اللهِ﴾:المراد بالوجه الصفة صفة الله التي هي الوجه وهي ثابته لله – جل وعلا – في آيات في القرآن الكريم والمعنىٰ واضح ؛ لأن المصلي أينما صلىٰ فثم وجه الله؛ لأن الله سبحانه عليٌّ علىٰ خلقه محيط – تبارك وتعالىٰ – بهم، فمن استقبل القبلة التي أمر باستقبالها وهي الكعبة ، وبيت المقدس استقباله

نسخ وأصبح لا يحل استقباله فمن استقبل القبلة فهو مستقبل وجه الله – سبحانه وتعالىٰ –، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي_صلىٰ الله عليه وسلم_ النهي نهي المصلي أن يبصق قبل وجهه قال:((فإن الله –ﷻ– قبل وجه المصلي))

أو كما جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله –ﷺ– فختم هذه الآية الكريمة بهذين الاسمين (الواسع العليم) جاء في غاية المناسبة وتمام الموافقة.

«وأما قول الخليل وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت

{ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم}

فإنه توسل إلىٰ الله بهذين الاسمين لقبول هذا العمل الجليل حيث كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما ويسمع كلامهما ويجيب دعاءهما فإنه يراد بالسميع في مقام الدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة معنىٰ المستجيب كما قال الخليل في الآية الأخرىٰ {إن ربي لسميع الدعاء}»

ثم ذكر _– رحمه الله تعالىٰ – _ هذا المثال : وهو قول إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل _عليهما السلام _ وهما يرفعان القواعد من البيت {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ (١٢٧)} سألا الله_ – جل وعلا – _ القبول

{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ}

ثم ذكر هذين الاسمين متوسلين الله بهما طلب القبول {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)}.

وذكر هذين الاسمين في هذا الموضوع في غاية المناسبة لأن المقام مقام دعاء وسؤال وطلب ورجاء الله _ – سبحانه وتعالىٰ – _ القبول فناسب أن يختم بهذين الاسمين (السميع العليم)

السميع : الذي يسمع من يناديه ، ويسمع من يناجيه وقد قيل للنبي _عليه الصلاة والسلام_ : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فقال:((إن الذي تدعونه سميع قريب)) أو كما قال _عليه الصلاة والسلام_.

ففي التوجه إلىٰ الله ﷻ بالدعاء إيمان بأن الله سميع لأنك لا تدعو ولا تناجي إلا من يسمع صوتك فدعاءك الله _ – عز وجل – _ هذا إقرار بأنه سميع ، ولهذا ناسب التوسل لله _ – جل وعلا – _ بأنه يسمع الأصوات يسمع دعاء

الداعين_ – جل وعلا – _ بل لو أن الناس كلهم من زمن آدم إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها قاموا أجمعين في لحظة واحدة ، وفي صعيد واحد، وفي وقت واحد ، وكلهم في لحظة واحدة دعوا وكل ذكر حاجته، وكل تكلم بلغته ولهجته في لحظة واحدة، في دقيقة واحدة لو تكلموا أجمعين لسمع _ – تبارك وتعالىٰ – _ أصواتهم أجمعين دون أن يختلط عليه صوت بصوت ودون أن تختلط عليه لغة بلغة ودون أن تختلط عليه حاجة بحاجة، والإنسان لو تكلم معه اثنان في لحظة واحدة لطلب من أحدهم أن يسكت حتىٰ يفهم كلام الآخر وهذه الملايين المملينة والنفوس الكثيرة التي لا يحصيها إلا الله لو أنهم أجمعين قاموا في صعيد واحد في لحظة واحدة في دقيقة واحدة تكلموا أجمعين وكل ذكر حاجته وكل تكلم بلغته ولهجته لسمعهم رب العالمين أجمعين ، ولهذا قالت عائشة _رضي الله عنها_ :((**الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات**)) متىٰ قالت هاته الكلمة؟ لما جاءت المرأة المجادلة تجادل النبي_ صلىٰ الله عليه وسلم_ في زوجها وتشتكي إلىٰ الله خولة _رضي الله عنها_ وتشتكي إلىٰ الله _رضي الله عنها_ تقول : أنا كنت في البيت وكنت قريبة منها أسمع بعض كلامها ويغيب عني بعضه ولما انتهت من المجادلة نزل قول الله تعالىٰ:{ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَىٰ اللهِ }﴿وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]

فالله – جل وعلا – وسع سمعه الأصوات كلها وهذا المعنىٰ أيضا مقرر في الحديث القدسي حديث أبي ذر في صحيح مسلم يقول الله تعالىٰ : ((عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر)) إذا أخذت لك إبرة وغمستها في بحر ورفعتها ماذا نقصت هذه الإبرة من البحر .

فالشاهد أن الله – سبحانه وتعالىٰ – وسع الأصوات كلها ولهذا من المناسب في حق الداعي والسائل والملتجأ إلىٰ الله – سبحانه وتعالىٰ – أن يتوسل إلىٰ الله بذكر سمعه ﴿ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]

والعليم أي: الذي تطلع علىٰ مافي القلوب ومافي الضمائر ومافي النيات فيتوسل إلىٰ الله – سبحانه وتعالىٰ – بسمعه للأصوات وأيضا علمه واطلاعه لما في الضمائر والقلوب والنيات قال: ((فإنه توسل إلىٰ الله بهذين الإسمين إلىٰ قبول هذا العمل الجليل)) أيضا هنا قف!... من هو المتوسل ؟ وماهو العمل الذي يتوسل إبراهيم الخليل وابنه إلىٰ الله – سبحانه وتعالىٰ – بقبوله؟

- المتوسل خليل الرحمن ((إن الله – عز وجل – اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا)) إبراهيم خليل الرحمن إبراهيم الذي جعله الله للناس إماما هذا المتوسل ، ومعه ابنه إسماعيل
- والعمل الذي يتوسل إلىٰ الله – سبحانه وتعالىٰ – أن يقبله منه بناء البيت يبني بيت الرحمن وبناؤه لبيت الرحمن هو بأمر من الله – سبحانه وتعالىٰ –

ولهذا ذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أن أحد السلف وهو وهيب بن ورد رحمه الله قرأ هذه الآية وبكىٰ قال : ((خليل الرحمن ويبني بيت الرحمن بأمر الرحمن ويخاف ألا يقبل)) فيتوسل إلىٰ الله – سبحانه وتعالىٰ – أن يتقبله منه

وجاء في بعض الكتب – والله أعلم – بصحته أنه مع كل حصاة يضعها في بناءه للبيت يقول : ((ربنا تقبل منا)) يضع الحصاة ويسأل ((ربنا تقبل منا)) ويضع الحصاة الآخرىٰ ويقول : ﴿ رَبَّنا تَقَبَّل مِنّا إِنَّكَ أَنتَ السَّميعُ العَليمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] وهو خليل الرحمن ، انظر الفرق بين خليل الرحمن وبين آخرين من الخلق يأتون بالعبادات علىٰ صورة مخلة وضعيفة وخاصرة ثم والعياذ بالله يمن بها علىٰ الله – سبحانه وتعالىٰ – أو يصاحب بعجب بنفسه وزهو واستكبار فرق بين أولياء الله المقربين وبين من سواهم ولهذا قال الحسن البصري – رحمه الله تعالىٰ – : ((إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة ، والمنافق جمع بين إساءة وأمن))

- المنافق جمع بين إساءة وأمن يسي العمل وآمن من مكر الله
- والمحسن يحسن العمل وخائف من الله – سبحانه وتعالىٰ – كما قال الله – جل وعلا – : ﴿وَالَّذينَ يُؤتونَ ما آتَوا وَقُلوبُهُم وَجِلَةٌ أَنَّهُم إِلىٰ رَبِّهِم راجِعونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]

تقول عائشة قلت : يا رسول الله أهو الرجل يسرق ويزني ويقتل ويخاف ألا يعذب ؟ قال: لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل))

ولهذا مضت السنة بين المسلمين من لدن زمن الصحابة رضي الله عنهم أنهم إذا تلاقوا يوم العيد يقول بعضهم لبعض : ((**تقبل الله منا ومنكم**)) لا أحد يدعي لنفسه أن عمله متقبل لا صيامه ولا صلاته ولا حجه ولا غير ذلك ولكن يرجو الله – سبحانه وتعالىٰ – لنفسه القبول ولإخوانه فهذا إبراهيم الخليل من جعله الله للناس إماما يعمل هذا العمل المبارك ويقوم بهذه الطاعة الجليلة ويتوسل إلىٰ الله – جل وعلا – بهذين الاسمين .

العليم أن يتقبل منه يقول: ﴿رَبَّنا تَقَبَّل مِنّا إِنَّكَ أَنتَ السَّميعُ العَليمُ﴾

قال الشيخ: حيث كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما، ويجيب دعائهما ولهذا ناسب أن يأتيٰ بهاتين الاسمين.

ثمَّ يقول الشيخ: فإنَّه يراد بالسمع في مقام الدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة معنىٰ المستجيب: سمع الله لمن حمده أي: استجاب،

وقوله: ﴿إِنَّ رَبّي لَسَميعُ الدُّعاءِ﴾ أي: مجيبه، فالسمع في مقام الدعاء والسؤال والطلب: المراد به سمع الاجابة لا مجرد السمع، وإنما المراد به **سمع الاجابة**: أي: السمع الذي يترتب عليه ويكون من آثاره إجابة دعاء الداعين؛ فهو يتوسل إلىٰ الله – تبارك وتعالىٰ – بهذا.

وأمَّا ختم قوله: ﴿رَبَّنا وَابعَث فيهِم رَسولًا مِنهُم﴾ بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾ أي: فكما أنَّ بعثتك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة ففيه تمام عزة الله وكمال حكمته؛ فإنَّه ليس من حكمته أن يترك الخلق سدىٰ عبثا لا يرسل إليهم رسولا، فحقق الله ببعثته لئلا يكون للناس علىٰ الله حجة، والأمور كلها قدريُها وشرعيها لا تقول إلا بعزة الله ونفوذ حكمه.

ثمَّ ذكر هذا المثال وهو قوله: ﴿رَبَّنا وَابعَث فيهِم رَسولًا مِنهُم﴾ هذه الآية ختمت بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾ مع أنَّ المعاني التي ذُكرت في الآية أن يبعث فيهم رسولا يتلو عليهم آيات الله؛ يعلمهم الكتاب والحكمة؛ يزكيهم هذا السياق خُتم بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾ فما مناسبة العزة والحكمة لهذا السياق؟

يقول: فكما أنَّ بعثتك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة ففيه تمام عزة الله، وكمال حكمته فإنَّه ليس من حكمته – تبارك وتعالىٰ – أن يترك الخلق سدًا عبثًا لا يرسل إليهم رسولًا؛

فناسب هنا ذكر الحكمة؛ لأنَّ الحكيم – سبحانه وتعالىٰ – من كمال حكمته أن لا خلقه سدىٰ، بل من حكمته أن يبعث فيهم الرسل يبينون لهم الهدىٰ، ويدعونهم إلىٰ الحق، ويحذرونهم من سُبل الردىٰ.

(أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

هـذا لا يليـق ولا يناسـب حكمـة الله – سـبحانه وتعـالىٰ – أن يـترك الخلـق سـدىٰ لا يبعـث فـيهم رسـلًا يـدعونهم، ويهدونهم، ويدلونهم إلىٰ الحق ليس هذا من حكمته، ولهذا ناسب هذا المقام أن تختم هذه الآية بذكر الحكمة.

قال: فحقق الله حكمته ببعثته لئلا يكون للنَّاس علىٰ الله حجة، والأمـور كلهـا قـدريها وشـرعيها لا تقـوم إلا بعـزة الله، ونفوذ حكمه؛

فهذا دليل علىٰ أنَّه عزيز أي: لا يـرده ولا يقهـره شـيء، ولا يغلبـه شـيء – سـبحانه وتعـالىٰ – ، ودليـلٌ علىٰ أنَّـه أيضًـا حكيم ، ومن حكمته بعثة الأنبياء والمرسلين لإقامة الحجج، وإزالة المعذرة، وبيان الدين كما أمر الله – سبحانه وتعالىٰ – .

وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنىٰ عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها.

هنا سيذكر الشيخ جملة من الآيات فيها ذكر أحكام شريعية، وتكون الأحكام الشرعية مستنبطة ومستفادة من الأسماء التي خُتمت بها الآيات، وهذا موضوعٌ يأخذ عند الشيخ رحمه الله مساحة واسعة فيأجل الحديث عنه إلىٰ لقاء الغد بإذن الله – تبارك وتعالىٰ – راجين من الله – عز وجل – ، وسائلينه – سبحانه وتعالىٰ – بأسماءه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ أن يتقبل منا، وأن يغفر لنا، وأنا يتوب علينا، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيما، وأن يصلح لنا النية والذرية، وأن يوفقنا....